الأديب

المُتوكل سعيد نزّال

الشاعر الفلسطيني المُتوكل طه نزّال

فدوى عبد الرحيم عودة*

نجم سطع في سماء الشّعر الفلسطيني، وازداد ألقًا في سنوات الانتفاضة الأولى عام (1987)، حيث كان للمعتقلات التي قضى فيها حقبة من الزّمن أثرٌ بارزٌ في بعض أعماله. ولد الشاعر الفلسطيني المتوكل سعيد بكر طه نزال، في مدينة قلقيلية عام 1954، ودرس المرحلة الابتدائيّة والإعداديّة والثانويّة في مدارسها، التحق بجامعة بيرزيت عام 1976 في كليّة الآداب قسم اللُّغة العربيّة وتخرّج منها عام 1981، بعد ذلك التحق ببرنامج الماجستير في الآداب والنقد في جامعة اليرموك في المملكة الأردنيّة الهاشميّة، وحصل على درجة الماجستير في عام 1983. تقلّد الشّاعر عدّة مناصب في حياته، فأصبح رئيسًا لاتحاد الكتّاب الفلسطينيّين في الضّفة والقطاع من عام 1987 حتى عام 1995، ورئيس الهيئة العامّة لمجلس التعليم العام من عام 1992 حتى عام 1994، ثم شغل منصب وكيل وزارة الإعلام الفلسطينيّة من عام 1994 حتى عام 1998، وفي نفس العام أسّس بيت الشّعر في فلسطين مع عدد من المبدعين الفلسطينّيين، انتخب أمينًا عامًا للكتّاب والأدباء الفلسطينِّيين عام 2005 حتى شباط عام 2010، ثم انتخب أمينًا ورئيسًا لمنظمة شعراء بلا حدود في فلسطين، عضو مجلس أمناء جائزة فلسطين للتّميز والإبداع، ورئيس فخري لمنتدى المثقّفين، وعضو نقابة الصحفّيين الفلسطينيّة، وعضو المؤتمر الشّعبي الوطني للقدس الشريف، شارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات. نشرت مؤلفاته في داخل فلسطين وخارجها، وترجمت بعض أعماله إلى لغات مختلفة، شغل المتوكل طه منذ عام 2006 وحتى آذار 2012 منصب وكيل وزارة الإعلام، وفي نيسان من العام ذاته وقع عليه الاختيار ليكون سفيرًا لدولة فلسطين في ليبيا، وما يميّز المتوكل طه أعماله الواسعة المتنوعة بين الشِّعر والنّثر والمقال والدراسة.

---

* وزارة التربية والتعليم – طولكرم.

مؤلفاته الشِّعرية

1- مواسم الموت والحياة، دار العودة، القدس، ط1، 1987.

2- زمن الصُّعود، اتحاد الكُتَّاب الفلسطينِّيين، ط1، 1989.

3- فضاء الأغنيات، دار الكاتب، القدس، ط1، 1989.

4- رغوة السُّؤال، دار الكاتب، القدس، ط1، 1992.

5- ريح النّار المقبلة، اتحاد الكتّاب الفلسطينيَّين، القدس، ط1، 1993.

6- أو كما قال (مختارات)، المؤسسة العربيّة للدراسات والنَّشر، بيروت، ط1، 1993.

7- قبور الماء (قصائد لم تنشر في مجموعة) وتم تضمينها في الأعمال الشعرية الصادرة عن المؤسسة العربيَّة للدراسات والنَّشر، بيروت، 2003.

8- حليب أسود (عن هارون الرشيد والبرامكة)، دار الشروق للنَّشر والتوزيع، رام الله، ط1، 2000.

9- نقوش على جداريَّة محمود درويش، بيت المقدس للنَّشر والتوزيع، القدس، ط1، 2000.

10- الخروج إلى الحمراء (عن أبي عبد الله الصغير وتسليم غرناطة)، المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر، ط3، 2003.

11- الرُّمح على حاله، مركز أوغاريت للنَّشر والترجمة، البيرة، ط1، 2004.

12- أحلام ابن النَّبي، صدر عن مكتب المؤسسات الوطنيَّة/ البيرة، ط1، 2006.

13- قال الفتى لبنان، صدر عن دار الرُّعاة للدّراسات والنَّشر، رام الله، ط1، 2007.

14- نصوص إيلياء ويبوس، صدر عن دار الرَّاية للنَّشر والإعلام، ط1، 2009.

15- قصيدة القدس، إصدار الاتحاد العام للكتَّاب والصَّحفيّين الفلسطينيّين، ط1، 2009.

16- نصوص بترا (ورد القوافل)، صدر عن دار الجندي للنَّشر والتوزيع، القدس، ط1، 2011.

17- راية في الظّلام، صدر عن مركز بلا حدود للإبداع في فلسطين، ط1، 2012.

الأعمال النثرية والنصوص:

1- رمل الأفعى - سيرة معتقل كتسعوت أنصار3-، المؤسسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، ط1، 2001.

2- عباءة الورد - نصوص الانتفاضة والشُّهداء-، صدرت عن بيت الشعر، رام الله، ط1، 2001.

3- طهارة الصَّمت - عن الكتابة وهموم الثَّقافة-، دار الزاهرة، رام الله، ط1، 2003.

4- الانتفاضة ومرايا الدَّم والزلزال- شهادة عامان على انتفاضة الأقصى-، المؤسسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، ط1، 2002.

5- عرش الليمون - قلقيلية في أدب المتوكل طه-، صدر عن المؤسَّسة الفلسطينيَّة للإرشاد القومي، ط1، 2004.

6- سرديات الجنون - نصوص قصصيَّة -، صدرت عن دار الكرامة، رام الله، ط1، 2008.

7- كشكول الذَّهب – سرد-، صدر عن دار الرَّاية، رام الله، ط1، 2008.

8- الأبواب المنسيَّة - قصص قصيرة-، صدرت عن وزارة شؤون الأسرى والمحرريُن، رام الله، ط1، 2011.

9- سرد فلسطيني - مختارات نثريَّة-، صدرت عن المجلس الأعلى للثَّقافة، القاهرة، ط2، 2011.

10- تحت الطبع - دراسات في الإعلام الفلسطيني وحريَّة التعبير-، دائرة المطبوعات والنَّشر، رام الله، 2011.

الدّراسات:

1- بعد عقدين - وجيل الثّقافة الوطنيّة الفلسطينيّة في الأراضي المحتلّة بعد عشرين عامًا من الاحتلال - بالاشتراك مع دار العودة، القدس.

2- دراسات في الأدب واللُّغة والإنسان والشِّعر والمسرح، دار كل الناس، القدس، ط1، 1999.

3- الثّقافة والانتفاضة - بعد ألف يوم من الانتفاضة -، أثر الانتفاضة في الثّقافة وأثر الثّقافة في الانتفاضة، بالاشتراك مع دار العودة، القدس، ط1، 1993.

4- إبراهيم طوقان، - دراسة في شعره -، دار الأسوار، عكا، ط1، 1994.

5- الكنوز، - ما لم يعرف عن إبراهيم طوقان -، صدرت الطبعة الثّالثة بعنوان - من أوراق الشّاعر - عن مؤسسة البابطين، الكويت، 2002.

6- هذا ما لزم - رسائل إبراهيم طوقان إلى فدوى طوقان -، الزّاهرة للنَّشر والتوزيع، رام الله، ط2، 2000.

7- دراسة في قصيدة الثلاثاء الحمراء - البحث عن شاعر آخر -، وقد صدرت هذه الكتب الأربعة الأخيرة من هذه الدِّراسة المتعلقة بإبراهيم طوقان عن المؤسسة العربيّة للنّشر، بيروت، ط1، 2004.

8- مقدمات حول الشِّعر الفلسطيني الحديث والثّقافة الوطنيّة، صدرت عن دار البيرق العربي، رام الله، ط1، 2004.

9- السّاخر والجسد، الأردن، ط2، 1994.

10- صورة الآخر في الشِّعر الفلسطيني، صدرت عن مركز الدِّراسات الاستراتيجيَّة، رام الله، ط1، 2005.

11- وهم الوصول - مقالات في الأدب والفن والثّقافة -، صدرت عن المركز الفلسطيني للدِّراسات والنَّشر والإعلام، رام الله، ط1، 2007.

هذا وقد تناولت العديد من الدِّراسات والأبحاث والرَّسائل الجامعية أعمال المتوكل بالدِّراسة والنقد وقد تجاوز ما كتب عنه الثمانين دراسة - كلها موجودة على موقع الشّاعر الإلكتروني-.

الجوائز: حصل الشّاعر على الكثير من الجوائز التقديرية منها:

1- جائزة سوق عكاظ - مسابقة الشِّعر على مستوى فلسطين-، 1993.
2- جائزة الشِّعر - جائزة الشّاعر عبد الرحيم محمود-، القدس، 1990.
3- جائزة الحريّة - وزارة شؤون الأسرى والمحررين-، فلسطين، 2010.
4- جائزة أفضل قصيدة عن القدس، الرِّباط، المغرب، 2009.

التكريم: تم تكريم الشّاعر في أكثر من مئة وخمسين مؤسسة فلسطينيّة على مدار السنوات العشرين الماضية، كما تم تكريمه في عدد كبير من الدول العربيّة، ومن خلال عدد واسع من المؤسسات الثّقافية والأدبيَّة والمهرجانات، وصلت إلى ثلاثين تكريمًا.

أما عن طفولة الشّاعر ونشأته، فقد ولد "المتوكل سعيد بكر نزال طه" في العاشر من آذار عام 1958، في مدينة قلقيلية لأسرة كبيرة العدد وهو ابن الزوجة الثانية؛ وكانت الأولى قد توفيت أثناء وجود والده في سجن عكّا إبّان الانتداب البريطاني، وقد تربى المتوكل في بيت واسع الثّقافة عريق المكانة، فنهل من مكتبة والده التي حوت عددًا غير قليل من المصادر والمراجع الأدبيّة والدِّينيّة والتّاريخيّة التي كان لها الأثر الكبير في تكوين ثقافته وبناء شخصيَته الأدبيّة. توفي والده وهو في الثّانية عشرة من عمره، فواجه الحياة وهو طفل بشخصيّة قويّة، لأن اليتم المعنويّ هو الذي أثر عليه فقط، فأسرته الغنيّة وفّرت له غطاءَ ماديًّا[1] وقد سجل الشّاعر تداعيات اليتم في ديوانه (رغوة السُّؤال) حيث يقول:

"وأّذكر أني دهشت من الموت/ كنت صغيرًا ولم أعرف الفرق/ بين الجنازات، يمضي إلينا/ وأذكر لما دخلت .../ تفتّق دمعُ الأرامل حزنًا عليّ/ وقلن... تيتّم طفلاً"[2]

[1] مقابلتي مع الشاعر 2012/3/19، وزارة الإعلام، رام الله.

[2] المتوكل طه: ديوان رغوة السُّؤال، دار الكاتب، القدس، 1992، ط 1، ص 45.

أما عن حياته السِّياسيّة والاجتماعيّة فقد بدأت بواكير همه الوطنيّ منذ دخوله جامعة بيرزيت لدراسة المرحلة الجامعيّة الأولى. فقد ترأس اتحاد الكتّاب، ومارس من خلاله نشاطه السِّياسي، وفي الانتفاضة الأولى تعوّد الشاعر زيارة المعتقلات والتّنقُل من سجن إلى آخر. ومن اعتقال عادي إلى إداري؛ فقد اعتقل تسع مرات، وفرضت عليه الإقامة الجبرية ثلاث مرات، وقد أفاد المتوكل من تجربة السّجن كثيرًا، فألف وهو في السّجن ديوانه "زمن الصَّعود" و "فضاء الأغنيات" في العام 1988.

أمّا حالته الاجتماعيّة فهو متزوج من سيّدة مقدسيّة وله منها ثلاث بنات وولد؛ وهم هزار 1986، نوار 1989، تقى 1992، محمّد 1994.[1]

ونظرًا لشموليّة مؤلفاته وتنوُّعِها، ما بين الشِّعر والنّثر والدِّراسة، فإننا سنركز على محاور تنعكس فيها شخصيّته وإبداعاته، ومن خلال هذه المحاور سنسلط الضوء على دواوينه الشِّعرية وأعماله النّثرية الواسعة؛ وهذه المحاور هي:

- أدب السُّجون.
- الخط النِّضالي للمتوكل وموقفه من التّسوية السِّلميّة.
- الذّات الفلسطينيّة والتّمركز حولها.
- مؤلفاته في إبراهيم طوقان.
- دراسة في ديواني" الأبواب المنسيّة" و "حليب أسود".

أولاً: أدب السُّجون

يعتبر أدب السُّجون والمعتقلات فنٌّ قديم حديث، أرسى دعائمه ثلّة من الشّعراء في العصور السّالفة ويعدُّ أبو فراس الحمداني في روميّاته، والحطيئة في قصائده، وعلي بن الجهم وغيرهم الكثير من الشُّعراء أول من حمل هذا اللواء. أما في العصر الحديث؛ فقد ظهر هذا الأدب في كثير من المجتمعات كحياة مُعاشة خلف القضبان. ومن أشهر روُّاده في

[1] مقابلتي مع الشاعر في 2012/3/19، وزارة الإعلام، رام الله.

المجتمع الرُّوسي الكاتب الشّهير "ديستوفسكي" في روايته "منزل الأموات" والشّاعر التركي "ناظم حكمت" والكاتب "عبد الرحمن منيف" في روايته "شرق المتوسط"[1]. وإذا عدنا للتّاريخ الفلسطيني بمراحله النّازفة بالألم، فإننا سنجد كاتب فلسطين الكبير "خليل السّكاكيني" يكبل بالقيود ويساق إلى السِّجن عام 1917 إبان الحكم العثماني. ومن أشعاره واصفًا حاله قوله:

لا تـراني إلا رأيـت شـجيـاً قَلقَ الفِكرِ دائِم الوَسْواسِ
إنَّ شَـوْقِي إلى ذَويَّ لشَـوقٌ عَلِمَ اللَّهُ ما لهُ مِن قِياسِ[2]

وفي ثورة عام 1936 ضدّ الانتداب البريطاني، اشتهرت قصيدة شعبيَّة للشّاعر الفلسطيني "عوض" كُتبت على جدران زنزانته وهو ينتظر حكم الإعدام ومنها قوله:

"ياليـل خلـي الأسـيـر تـا يكـمّل نـواحـو
رايح يفيـق الـفـجـر ويـرفـرف جنـاحـو
تا يمـرجـح المـشـنـوق من هبّـة ريـاحـو" [3]

"وبعد نكبة 1948 ظهر شعر السُّجون واضحًا في أشعار محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زيَّاد. وبعد نكسة عام 1967تكاملت صورة هذا الشِّعر لتصبح ملح حياة عند بعض الشُّعراء والكتَّاب والأديبات والشَّاعرات. ويتميَّز أدب السُّجون بأنه الأكثر صدقًا، أنجبته المعاناة النَّفسية والجسديَّة، فهو وليد تجربة حيَّة عاشها السَّجين بكل تفاصيلها"[4] وعلاقة المتوكل بالمعتقلات علاقة طويلة متسلسلة، بدأت باعتقال والده وهو طفل، واستمرت حتى

[1] زاهر الجوهر: شعر المعتقلات في فلسطين، بيت الشّعر الفلسطيني، ط 1، فلسطين، ص 28.

[2] عبد الرحمن ياغي: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ص 170.

[3] زاهر الجوهر: شعر المعتقلات في فلسطين، ص 19.

[4] لمزيد من المعلومات: ينظر وليد الفاهوم: فلسطينيات في سجن النساء الإسرائيلي، دار الجليل، عمان، ط1، 1985، ص173.

في شبابه عندما وضع رهن الاعتقال الإداري ثلاث مرات في سجن النَّقب الصَّحراوي، وخلالها أبدع مجموعتين شعريتين هما "زمن الصُّعود" و"فضاء الأغنيات" صوَّر فيهما معاناة السَّجين منذ اللحظات الأولى لاعتقاله وحتى استنشاقه لحظات الحريَّة. وكان إيمان المتوكل مطلقًا بهؤلاء المرابطين خلف القضبان، في السّجون المتناثرة في كافة أرجاء الوطن يقول:

"لم أصدق غير جمهورية الأبطال/ في اصطبلات خيل الفارعة/ أو في مردوان الظاهرية والحظائر في عناتا/ في الخيام بكتسعوت وفي مجدُّو/ في بركسات التَّجمُّع في بيتونيا"[1]

ويصور الشَّاعر لحظات الاعتقال وحركات الجنود واضطراب أنفسهم، وتربصهم تحت جنح الظلام، بحركات تفوح رائحة الهزيمة النَّفسيَّة منها يقول:

"ينتشرون على أسطح العشب/ تبرق بعض العيون وتصحو القلوب/ اعتقال .../ تمشي الهُريرة تجفل أسلحة الرُّعب/ تنهال نيرانهم للقتال!/ لقد حسبوا هرة الحيّ جيشًا/ فيا للجيوش ويا للنِّزال" [2]

ولا ينسى الشِّاعر أن يصوِّر ما يدور بداخل الزَّنازين من عنصريَّة تنفي الوجه الحضاري الذي يرسمه المحتلُّ لنفسه في الخارج. فهنا الكثير من المفارقات التي تعكس وحشيَّة الإنسانيَّة وجاهليَّة الحضارة يقول:

"لا ترحم ولا تطعم/ لا تعطي ولا تبقي/ وصادر كل ما تلقى/ وفتش أعين الأسرى/ ورش الغاز في الغرفة/ ولا تترك لهم فرشة/ واشتم عرض والهم/ وحطم رأس حاديهم"[3]

---

[1] المتوكل طه: فضاء الأغنيات، دار الكاتب، القدس، ط1، 1990، ص80-81.

[2] المتوكل طه: زمن الصُّعود، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، 1989، ص90.

[3] المتوكل طه: م.س، ص 54.

ويتابع "المتوكل طه" إصراره على التَّحدي بكلمات تنفث جبروتاً وصمودًا فليس للفلسطينيين خيار؛ فإما الموت أو التَّحدي بقوله:

"وإن متنا وإن جعنا/ وإن كنَّا بهذا السّجن لن نخسر/ فكل حياتنا موت، وكل حياتنا جوع/ وكل حياتنا سجن/ ولن تبقى لنا أرضًا ولن تبقي لنا عرضًا"[1]

وتتوالى معاناة السَّجين فهذا الليل لا يرحم، وهذا الصَّبح لا يقبل، ولكن همّة نفسه العالية تهوّن هذا المسار الطويل يقول الشَّاعر واصفًا يوم السّجين الطَّويل:

"بين جدران الزَنازين/ يكون اليوم عاما/ هذه حكمة السِّجن وأيام السِّجين/ هرمًا طفلاً ولحنًا ... وأنين"[2]

وفي قصص الأبواب المنسيَّة، هذا الكتاب الذي يسرد بقصصه الصغيرة ما يدور في السِّجن من أمور ماديَّة ومعنويَّة، فقد وصف المتوكل ما يراود السّجين في يومه من أحلام قائلاً:

"ومن هذه التي تتهادى على فرس الغيم طريق الغاب ... ومن الذي يمسك ذراع العروس ويخطو معها على ماء؟ ولمن هذه الزَّفة الصاخبة، التي تضوع الشُّرفات بزغاريدها وصهيلها ورقصات مزاميرها؟ أيقظوه إنه يحلم كعادته".[3]

ولم ينسَ السَّجان زرع الفتن بين السُّجناء، فها هو يزرع الشَّرَّ ويروي الحقد وهذه عادته المألوفة، فالسَّجان إنسان ساديُّ بطبعه ومن صور ساديّته ومحاولته قتل كل بصيص أمل في نفوس السُّجناء حتَّى ولو كان ضئيلاً؛ نحو اقتلاع الوشم من ذراع سجين لأنه باسم فلسطين، ومحاولته تدمير جدار رسم السُجناء عليه خيولاً، فهم يخافون من السَّاحر ومن

[1] المتوكل طه: فضاء الأغنيات، ص60.

[2] المتوكل طه: ريح النَّار المقبلة، اتحاد الكتاب، القدس، ط1، 1993، ص8.

[3] المتوكل طه: الأبواب المنسية – قصص قصيرة-، صدر عن وزارة شؤون الأسرى والمحررين، رام الله، فلسطين، ط1، 2011، ص55.

الرَّسام فيرشقون اللَّوحة بوابل كثيف من رصاصهم " لقد باغتتنا الخيول المرسومة على الجدار، فخرجت منه، وجمحت وصهلت، وكادت توقعنا تحت حوافرها، فرميناها بالنَّار ".[1]

ثم يتابع ببراعة وصف أثر الزِّيارة القصيرة في نفس السَّجين، حيث يرتقي الأسير إلى السَّماء في غضون ثلاثين دقيقة ليلتقي الأولياء والأنبياء.

وتتوالى الصور التي تعبر عن واقع المعتقل المعيشي والنَّفسي والفلسفي، فهذا المعتقل الذي يجبره الواقع على التَّكيف مع الظروف القاهرة لإنسانيَّته لن يفقد الأمل مهما اشتدت المعاناة، فالحريَّة حلم ليله ونهاره، يقول المتوكل في هذا الشَّأن: " وانتهينا إلى أنَّ الشمس تطفح بأشعتها الذَّهبية وتصعد".[2]

ومن صور الحرب النَّفسية ضد المعتقلين؛ مأساة الاعتقال الإداري المحرَّم دوليًا، وهو اعتقال دون تهمة أو محاكمة ولو شكلية، ولا موعد إفراج، وتتأرجح المشاعر وتلتهب الأحاسيس في انتظار موعد الإفراج وفرحة اللِّقاء بالأهل والأحبّة، ولكن سرعان ما يأتي الخبر الكارثيُّ المؤلم لينهي هذا الفرح يقول المتوكل في وصف هذا المشهد الأليم:

> "ويحلُّ بعد أيَّام سأنهي الحكم/ سوف أكرس الأيَّام تقبيلاً لعينها/ وأفرش أجمل الأحلام / تحت كؤوس عينها/ يبلغني جنود السِّجن / ستَّة أشهر أخرى/ (إداري) سوف تقضيها".[3]

ومهما أسبل الظَّلام جُنْحَه، وعلت في الأفق آهات المظلومين، إلا أن للسّجن مزايا تصقل الشَّخصية وتقوّي الشكيمة، فمن خلال الألم يولد الأمل بفجر جديد قادم، يصف المتوكل المعاناة المشتركة التي تقوّي الإرادة بقوله:

---

[1] المتوكل طه: الأبواب المنسية – قصص قصيرة، صدر عن وزارة شؤون الأسرى والمحررين، رام الله، فلسطين، ط1، 2011، ص30.

[2] م.س: ص36.

[3] المتوكل طه: فضاء الأغنيات، ص 110.

"السِّجن يصقل زند الفتوَّة/ يزرع معنى التَّجلُّد في الرُّوح/ يخلق روح الجماعة في الفرد"[1]

وأخيرًا لو طافت بنا الذَّاكرة على كل من كتب في أدب السُّجون من كتَّاب وشعراء لوجدنا أنَّ المتوكل طه من الأسماء الأكثر حضورًا في هذا المجال، فهو حامل هذا اللّواء. لم يتطرق كاتب ولا مبدع لمقاربة المعتقلات وزنازين القهر الصُّهيونيَّة مثلما فعل المتوكل طه، فقد كسا عظام القصيدة الفلسطينيَّة بلحم الوقائع وسخونة الواقع، بما يحمله من قسوة الغازي واحتمال الضَّحية وصبرها.

وما زال المتوكل طه كواحد من شعراء الأرض المحتلَّة يقبض على جمرة المقاومة في اللُّغة الشِّعرية والنّثرية والمقالة السَّاخنة لتحافظ البلاد على توهجها. وقد تطرق عدد من الكتَّاب والباحثين لتجربة السِّجن عند المتوكل، فأكثروا من الدِّراسة فيها؛ ومن أشهر الكتَّاب الذين أتحفونا بمقالاتهم ما يأتي:

- مراد السُّوداني: "سرُّ الاكتواء ونسغ الرَّمل - عن السُّجون - كتسعوت "رمل الأفعى"، المتوكل طه في سيرة كتسعوت.
- فراس حاج محمَّد: السُّخرية في شعر المعتقل.
- إبراهيم جوهر: المرأة في السُّجون " طوَّقوا البلابل فصار النَّشيد أجمل ".
- صبحي حديدي: النَّص الأعلى.
- سهام عارضة: دراسة في معتقل أنصار شاهد على عصر الحرّيَّة.
- خلدون الشيخ علي: هكذا أنصار عند المتوكل طه، وناصر الدَّمج "دراسة أدبيَّة"
- د. عادل أبو عمشة: الاغتراب والعروبة، الانتفاضة وإرهاصاتها في أدب أنصار.
- جمال صالح حمَّاد الدَّيك: كلمات لا تعرف الهدنة [2].

[1] المتوكل طه: رغوة السُّؤال، ص82.

[2] موقع د. المتوكل طه على النت www.a-taha.com.

وبعد أدب السُّجون الذي كان له النصيب الأكبر في أعمال المتوكل طه الشِّعريَّة منها والنَّثريَّة، نسير إلى عمود ثابت في شخصيَّة المتوكل انعكس على أعماله ...

ثانيًا: خطه النِّضال وموقفه من التسوية "المقاومة في شعر المتوكل"

يبقى الهمُّ الوطنيُّ محمولاً في حقيبة مسافر يرتحل بها في نومه ويقظته "ويحمل الشِّعر الفلسطيني منذ بداية الانتداب، المسألة الفلسطينيَّة، بوصفها قضيته الفلسطينيَّة الوحيدة "[1] والشِّعر الفلسطيني جزء لا يتجزأ من الهوية الفلسطينيَّة، فقد قاوم وعبَّر عن القضايا المركزيَّة للوطن ومتطلبات الانتماء إليه، ومحاولة تغيير الهويّة أو تزويرها. ويتصدر المتوكل طه رأس القائمة ممن عبّروا عن قداسة الأرض وأعباء الرِّسالة الوطنيَّة موظفًا قضيَّة القدس باعتبارها قضيّة دين ووطن يقول:

"نحن من لبَّى نداء الأرض للقدس/ وأعطى دمه حرًّا لأرض الأنبياء/ وكتبنا يا فلسطين ارفعي الرَّايات نصرًا/ واجعلينا في كتاب المجد جندًا أوفياء"[2]

وللقدس الأولويَّة لكن يمتدُّ الوطن بمساحاته، بقراه، بمدنه، بمخيماته في ذاكرة المتوكل طه وينصهر مشكلاً الذَّات الوطنيَّة." ويتسلل الشَّاعر إلى نسيج الشخصيَّة الأخرى ليرسم صورة تعكس انهزامًا في العلاقة الجدليَّة بين المغتصب والأرض المحتلة، وعاد الشَّاعر إلى أشياء الطبيعة من غيوم ورمل وطيور في تفسير الضَّغط الذي يمارسه المغتصب ضَّد الأرض لتعترف به"[3] ومن أصدق الوصف الذي يدل على هذه القضيّة "مقطوعة يوم الأرض" التي يقول فيها:

---

[1] إلياس خوري: الذاكرة المفقودة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1982، ص229.

[2] المتوكل طه – أو كما قال-- المؤسسة العربية للّدراسات، بيروت، ط1، 1999، ص23.

[3] عبد المجيد عبدالعزيز حامد: أعشاب القيد والقصيدة- التجربة الشعرية عند المتوكل طه- رسالة ماجستير، صادرة عن جامعة النجاح الوطنية، إشراف د. عادل أبو عمشة، 2002، ص28.

"ما بالك تبكي؟/ وزفافك في يوم الأرض/ يتوج أعراس العرسان شمال القلب/ ما بالك؟/ رغيفك ما حق"[1]

وبالرجوع إلى الذَّاكرة الفلسطينيَّة نرى أنَّ يوم الأرض "يوم خالد في التاريخ الفلسطيني المعاصر، حيث استُشهد ستَّة من أبناء الجليل والمثلث فضلاً عن عشرات الجرحى في الثلاثين من آذار عام 1976"[2]

وإذا عدنا إلى الموضوع الرَّئيسي وهو موقف الشَّاعر من التَّسوية السّياسيَّة، سنجد أن الشَّاعر الذي نقشت رطوبة السّجن على جسده وشمًا لن تزيله الأيام، يمزج التَّفاؤل بالدَّهشة ويقف منتظرًا ما سترشح عنه هذه التجربة الجديدة؛ لأن مسيرة التَّسوية تشكل مفصلاً بل منعطفًا تاريخيًّا خطيرًا في تاريخ القضيَّة الفلسطينيَّة والصراع مع الدَّولة الغاصبة. وعلى الرغم من أنَّ مؤتمر مدريد الذي عقد نهاية عام 1991 يمثل اعترافًا بالدولة اليهوديَّة كدولة أخرى على تراب فلسطين المحتلة عام 1948 إلا أنَّ المتوكل شأنه شأن الكثيرين من أبناء هذا الوطن، رأى فيه خيط أمل ضعيف للخلاص من الوضع الرَّاهن في ظل الانتفاضة الأولى التي استهلكت الكثير من روح الشَّعب الفلسطيني وجسده، فالسلام كان عنده دواءً مرًا لا بديل عنه في مرحلة من المراحل. ويظهر هذا جليًّا بعد تجاربه الأليمة مع الاعتقال الإداري حيث يقول:

"ونسعى أيُّها الجنديُّ أن نحيا بلا دمع/ بلا أحزان/ نحبُّ صغاركم/ ونحبُّ أن يمضوا مع الأطفال في بلدي/ إلى نبع السَّلام الزَّاخر الفواح باطمئنان/ فارجع أيُّها الجنديُّ يا من شوهتك مبادئ الطغيان/ ارجع كي نطرز عمرنا الباقي بأغنية السَّلام العذب/ ارجع كي تمدَّ يديك كالأحباب/ حين تعانق الأحباب"[3]

---

[1] المتوكل طه: مواسم الموت والحياة، دار العودة، القدس، ط1، 1987، ص113.

[2] موجز تاريخ فلسطين:- مجموعة من الباحثين، اللجنة العربية لإحياء ذكرى النكبة، ص78.

[3] المتوكل طه: فضاء الأغنيات، ص58.

والمُراجع لزمن إنتاج هذه القصيدة يلاحظ أنها قيلت في مرحلة التَّسوية وهذا يدل على اشتياق الشَّاعر للسَّلام والهدوء النَّفسي والعيش باطمئنان "متخذًا من الطفولة مدخلاً لخطاب التَّعايش والوئام دلالة على البعد الإنساني لطرحه"[1] لكن بعد "أوسلو" تتطور فكرة السَّلام عند الشَّاعر لتشكل منعطفًا لا يمكن لا يمكن التراجع فيه عن دور القدس، وما تحمله من دلالات دينيَّة في نفوس أبناء شعب فلسطين، فلا مجال للتسَّوية بدون حلِّ قضيَّة القدس، يقول صارخًا مؤكدًا على حق الفلسطيني في سلام مشرف:

"فما بالهم ينكرون علينا محبّتنا للتّعايش/ إنَّا نؤصل منذ البداية حبَّ الحياة/ على أن تكون حياة الكرامة والحبّ والعدل/ لا عيشة لاهفة/ إنّي أريد السَّلام... ولكن/ سلامًا يعيد إلى القدس مهرتها الواجفة/ إني أريد السَّلام ولكن/ سلامًا يعيد لأمتنا قدسها الكاسفة/ سلام بدون السَّلام سلام عليه/ وتبقى الكوابيس والعاصفة[2]

وسرعان ما يبدأ موقف الشَّاعر من العاصفة يتغير فبعد الشَّد والجذب والمماطلة من الآخر، والتنازلات من جانب الشَّعب الفلسطيني "تبدأ إرهاصات التشاؤم كتطور جديد لمفهوم السَّلام عند المتوكل في مقطوعة شعرية تمثل الوصول إلى ما يسمى (خيبة النِّهايات)"[3]

"بدأنا قديمًا ... قديمًا بدأنا/ ولما وصلنا إلى الموت / قلنا ابتدأنا/ إذن ما نرى محض حلم؟!/ ما نرى ليس حلمًا/ هو الخطوة / التي سمحنا بها/ حين قلنا تنازل/ فمات الصَّهيل/ وافتر حناؤنا حين قيل:/ بأن الذي مات قاتل"[4]

---

[1] عبد المجيد عبد العزيز حامد: م.س، ص32.

[2] المتوكل طه: رغوة السُّؤال، ص20-21.

[3] عادل الأسطة: أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات، وزارة الثقافة الفلسطينية، ط1، 1998، ص147.

[4] المتوكل طه: رغوة السُّؤال، ص22.

وينتهي التشاؤم بالمتوكل من هذه التجاذبات التي تحرق الوقت وتنهب الأرض فيصرخ ساخطًا ويعلن موقفه صريحًا من عملية التسوية والتنازلات التي لا معنى لها فيقول:

"ومدريد تشهد أنَّا خرجنا إلى لغة الظَّن/ تشهد أنَّا كسرنا "ديكورات "صرختنا في الفنادق/ تشهد أنَّا نسينا حروف الشَّواهد/ والزَّفَّة النازفة/ والقدس تخرج من قبرها خائفة/ يقوم شهيد وراء شهيد/ يقولون ليس لهذا قتلنا/ ولكن ... لنبقى أناشيدنا واقفة "[1]

وعلى الرغم من أنَّ الشَّاعر يعيش داخل السَّلطة، ويعمل في مؤسساتها وخاصة عمله وكيلاً لوزارة الإعلام إلا أنَّ موقفه من التَّسوية يطفو على سطح عمله، ومعرفته بتناقضات المرحلة ما بين الأمل والواقع المعاش جعلت من قلمه سيفًا صارمًا يقطر تهكُّمًا واستنكارًا. وفي محفل التَّنازلات والتَّضحيات وعودة الموقف إلى الوراء خطوات وخطوات، بقول المتوكل متبرمًا هازئًا:

"ارتفعي يا أعمدة الخيمة قبل سقوط القيَّد علينا/ اتَّسعي في حمأة هذا الذُّل القبلي/ وغنَّي كيوم الصَّيف القادم، غنّي للرمل الناشف/ ينداح بحلقي أو حلّقي واتَّسعي لدموع الثَّكلى/ وجراح الجرحى/ اتَّسعي لوضوح الشُّهداء وضوء الفقراء/ اتَّسعي حتى لا يسقط تاريخ الأقصى/ أو حتَّى نعقد صلح الشُّجعان المنفرد مع الجيران/ وننسى القتلى، وينشر أجداث الموتى أنَّا نأسف "[2]

فمن وجهة نظر المتوكل الاتفاقيات وما واكبها من حلول منتقصة، ما جاءت إلا لتكرّس الاحتلال وجعله رابضًا على صدور شعبنا. وهذه المقطوعة تمثل استمرارًا لنغمة الرقص

[1] م.س: ص23.

[2] المتوكل طه: ريح النَّار المقبلة، ص18.

التي تقوم على ما يسمّيه الدكتور عادل الأُسطة " ثنائيَّة الشهيد المفاوض، الجدار والوفد، الُصمُّود والانهيار، فالبيع"[1]

وهكذا تزداد الأمور تعقيدًا ويتطور موفق المتوكل طه من التَّسويَّة فيشتد أسلوبه المتهكم ويصل إلى درجة السّخرية الشَّديدة فيقول مخاطبًا الشهداء:

"فاعتذروا يا شهداء/ اعتذروا للقوة والسُّلطان/ عقدنا صلح الشُّجعان الفردي/ فموتوا غيظًا لم يصبح أحد منكم/ جنرالاً أو مسئولا في غزة وأريحا"[2]

وفي النهاية يرسم المتوكل صورة سوداء كالحة لما ستفضي إليه الأمور في أعقاب "اتفاقيات أوسلو" وما ستجره من ويلات وتشرذمات في المجتمع الفلسطيني، هذا الشعب الذي استهوت بعض فئاته رياح السلطان وطمع السُّلطة، فيحذر من هذا المستقبل المظلم بقوله:

"قد يصدق القائلون: بأنَّ المراجل تحتاج/ دمعًا وسجنًا وموتًا وقرن عذاب/ ولكن أَنَّا خائف يا أبي/ أن يتم اعتقال الشَّهيد على الفور/ أو أن يحاكم باسم التَّهور/ أو أن يموت من القهر/ يرى كل شيء خرابًا خراب"[3]

بهذه التوقعات المستبقة ينظر المتوكل إلى ما سيحدث بعد تطبيق الاتفاقيات؛ التي ستجر على الشَّعب الرَّفاهية المقنعة بالألم " فتلك جدلية بين الماضي الدَّموي العدائي والحاضر السوداوي المغاير لقيم الثَّورة، ذلك إغلاق للنَّفق السّياسي المجهول الذي يوجه الشَّاعر نقده إليه، إذن يصبح الشَّهيد في العرف السّياسي الجديد إرهابيًا وهذا الحكم سيصدر على كل قديم الثَّورة وحديثها "[4].

---

[1] عادل الأسطة: أدب المقاومة، ص150.

[2] المتوكل طه: ريح النَّار المقبلة، ص21.

[3] المتوكل طه: رغوة السؤال، ص54.

[4] عبد المجيد عبدالعزيز حامد: م.س، ص38.

ثالثًا: المحور الثالث الذي بنيت عليه فلسفة أعمال المتوكل طه هو "التأكيد على الذَّات الفلسطينيَّة في كتاباته"

تنعكس أبعاد الهويَّة العربيَّة الإسلاميَّة الفلسطينيَّة من خلال الموقع الدَّيني والقداسة الروحيَّة التي وهبها الله لها؛ باختصار أقدس المدن وأعرقها، فالقدس عروس المدائن وتستحق التَّضحيات وقوافل الشُّهداء.

والمتوكل الذي يرفع هذه المكانة ويتعالى بها لتبلغ مستوى التَّضحية والفداء، يقول:

"في المدينة جمال سماوي يرحب بكم/ فادخلوها ... شهداء/ لديَّ عدة أسماء، لكن الأخير/ هو المظلم منها " [1]

فواجب النّضال مقدس والوفاء لهذه الأرض بذل رخيص، فلا خيار سوى الدّفاع عنها والانتماء إليها، لأن القدس هي التَّاريخ والهويّة الوطنيَّة، وتتجلى منزلة الشَّهيد عند المتوكل لتحمل هالة من القداسة يقول:

"وشاهدٌ وشهيدٌ طاب مسعاه/ ولو أتاح لنا المولى الصَّلاة إلى/ روح الشَّهيد لكنا قد عبدناه/ يا طائر القدس، يا حرًّا ويا مطرًا/ يهمي على وجع الدُّفلى ويرعاه/ ويبتدي الخلق من روح موزَّعة/ على الطَّريق دمًا بالحق أجراه/ يا طائر القدس! هذا القلب ما أكلت/ أبناؤك البيضُ، والآباء قتلاه/ ليعلموا أن نبض الأولين لهم/ ونبضهم لحفيد قد تولاه"[2]

ويطوف المتوكل بين المدن الفلسطينيَّة مذكّرًا بعظمتها وقوتها في العصور السَّالفة، فهذه عكا التي نكصت جيوش الظُّلم وارتدَّت بعيدًا عن أسوارها، وهذه حيفا بكرملها جنَّة الدُّنيا، وتلك يافا بتبر برتقالها، وغزَّة والقدس وعيبال، وخليل الرَّب، ورام الله، وأسطورة القسَّام وغيرها من المدن الفلسطينيَّة. وفي وصف هذه المدن الشَّامخة يقول المتوكل:

[1] المتوكل طه: نصوص إيلياء ويبوس، صدر عن دار الراية للإعلام والنشر، ط1، 2009، ص7.

[2] نصوص إيلياء ويبوس: م.س، ص73.

"تقولُ عكا! فيعلو سور من ثبتت/ في وجه من ثكلت في البعد أماه/ أو قلت حيفا! فيأتي الشَّيخ متَّشحًا / صنوبر الكرمل العالي وأنداه/ وذكر يافا يعيد العطر إذ نشرت/ عباءةُ التَّبر موجًا قد زرعناه/ والقدس عاصمة الألوان إن لبست/ أثوابها كانت الأعلى وأحلاه/ وغزَّةُ البرتقال البحر مَوْقدةُ/ نارٌ ونورٌ وجنيٌّ ومرساه"[1]

ويمتدُّ الوطن في قصائده من ساحله إلى بحره، من مخيَّمه وضيقه إلى قريته ببساطها الأخضر، إلى مدينته بعلوّها وشموخها، يمتدّ يتناسق يحملُ كلَّ طاقات الشَّاعر الإبداعيَّة، فهو حريص على أن يحوي في شعره كلَّ الدَّلالات التي تدعم أركان الهويَّة الفلسطينيَّة وحقيقة الانتماء لها، وتتشابك تلك الدَّلالات لتنصهر في بوتقة الصورة المركزة للوطن. فهذه المدينة بأبعادها الثَّقافيَّة والسّياسيَّة والحضاريَّة، وتمثل نابلس جبل النَّار في مُخيَّلة الشَّاعر حيث يقول:

"ما أجملك/ خلَّة العامود والمخفية/ والدَّوار، حوش المسك/ والأسواق والأبواب والخان العتيق/ وكلُّ أشجار الحدائق والصُّخور"[2]

وفي كلُّ الأماكن التي ذكرها الشّاعر نجد التلاحم النَّفسي والرَّوحي الذي يحولها من أماكن صمَّاء إلى وجدان ناطق متحرك مفعم بالأحاسيس" ولحارات المدينة وسوقها القديم مدلولات أكثر فاعلية في التَّأثير، تلك وسيلة مساعدة بالغة القوَّة في تصوير التَّلاحم الرَّوحي بين الأرض والوطن والإنسان " [3] وتبقى القريَّة تمثل العمق التَّاريخي من خلال علاقة الفلاح بأرضه، هذا الزَّواج الرُّوحي الذي لا تنفصم عراه مهما حاول الغاشم التَّفريق بينهما.

ويصف المتوكل هذا العاشق الذي نُزعت منه معشوقته بقوله:

---

[1] م.س، ص176-178.

[2] المتوكل طه: زمن الصُّعود، ص73-74.

[3] نزيه أبو نضال: الشعر الفلسطيني المقاتل، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، 1974، ص100.

"وكنت إذا لامست الأرض تطلق البسمة/ وأمَّا الآن فقد صُودرتِ/ ملكًا صرت للدولة ؟؟/ "محرَّرة"/ وهاهم علقوا/ "حذر دخول الأرض ممنوع"/ وحتَّى للغيوم وأرجل النملة"[1]

تلك هي العلاقة الوطيدة التي تربط المتوكل بوطنه، علاقة المُحب المخلص الذي لا يتنازل عن حبيبته "الهوية" ويتمنَّى أن يعيش معها بهدوء وسكينة دون إحساس بالحرمان والخوف يقول:

"قلت إني مثل باقي الخلق/ ما أرجوه أن أحيا - كطير في بلاد الله - وأنام الليل من دون الجنود[2]"

رابعًا: دراسات المتوكل طه في شعر إبراهيم طوقان

وإذا ما ابتعدنا قليلاً عن إبداع المتوكل نفسه إلى كتابته عن الغير، فإننا سندهش عند رؤيته يعجب بشاعر فلسطيني رقيق الكلمة، أضناه المرض طفلاً، وارتحل إلى العالم الآخر شابًا، إنه الشاعر "إبراهيم طوقان" شقيق الشَّاعرة المعروفة "فدوى طوقان"، وقد ألف المتوكل في حياة هذا الشَّاعر وأدبه مجموعة من المؤلفات على رأسها كتابه "السَّاخر والجسد: دراسة في شعر إبراهيم"[3] وقد تحدَّث فيه المؤلف عن طبيعة الحياة في فلسطين من العام 1900 وحتَّى النكبة في العام 1948، بما فيها حياة الشَّاعر "إبراهيم طوقان" وآثاره الشِّعرية وتحدث فيه أيضًا عن الموت، والجنس، والسُّخرية، والمفارقة، ونقائض الشَّاعر إبراهيم طوقان، ومصادر ثقافته. وقد ركز المتوكل على هذا الكتاب لأنه أُطروحته التي نال عليها درجة الماجستير في جامعة اليرموك، في اللُّغة العربية وآدابها عام 1983. يقول المتوكل في هذا المجال: "علاقتي بإبراهيم طوقان تعود إلى أيام الدّراسة، من خلال دراستي لنماذج

[1] المتوكل طه: زمن الصُّعود، ص249.

[2] المتوكل طه: مواسم الموت والحياة، ص174.

[3] المتوكل طه: السَّاخر والجسد- إبراهيم طوقان دراسة في شعره- دار اللوتس، عمان، ط1، 1992، ص3.

من شعره تضمنها المنهاج المدرسي، وأذكر أنَّنا درسنا له قصيدتيه الشَّهيرتين "في المكتبة" و"ملائكة الرَّحمة"، ومن يومها علقت نكهة إبراهيم طوقان في روحي"[1]

والكتاب الثَّاني الذي ألفه المتوكل طه في إبراهيم طوقان هو "الكنوز" – ما لم يعرف عن إبراهيم طوقان"[2] وقد جمع فيه قصائده، ورسائل، وأحاديث إذاعية، ومقالات، وأخبار، وكلمات من نتاج الشَّاعر "إبراهيم طوقان" لم تُعرف من قبل.

والكتاب الثَّالث "هذا ما لزم" رسائل إبراهيم إلى فدوى[3] صدر هذا الكتاب بمقدمة نقدية للرسائل المجموعة في الكتاب. وفيه مجموعة رسائل الشَّاعر "إبراهيم طوقان" إلى شقيقته الشَّاعرة "فدوى طوقان" ، أدرجها المتوكل حسب التوقيت الزَّمني لها، وعدد هذه الرسائل "أربع عشرة" رسالة شخصيَّة؛ تكمن أهميتها كونها أول رسائل شخصيَّة أدبية من شاعر رقيق إلى شاعرة رقيقة، وتظهر هذه الرَّسائل مدى حرص الأخ على تثقيف أخته وتعليمها، والوقوف إلى جانبها لينقلها من حياة الجهل إلى حياة النَّور والعلم.

والكتاب الرَّابع الذي ألَّفه في إبراهيم طوقان هو "دراسة في الثُّلاثاء الحمراء لإبراهيم طوقان"

أما الكتاب الخامس الذي تكلم فيه عن إبراهيم طوقان فهو "فدوى طوقان: الرسائل والمحذوف"[4] وقد صدر هذا الكتاب عن وزارة الثَّقافة في رام الله، عام 2010 ويضم كتابي "رسائل إبراهيم طوقان" و"قراءة المحذوف"[5]

---

[1] م.س: ص3.

[2] المتوكل طه: الكنوز- مالم يعرف عن إبراهيم طوقان-، عمان، دار الشروق، ط3، 1999.

[3] المتوكل طه: هذا ما لزم – رسائل إبراهيم طوقان الى فدوى – الزَّاهرة للنَّشر والتوزيع، رام الله، ط2، 2000.

[4] المتوكل طه: دراسة في الثلاثاء الحمراء لإبراهيم طوقان، بيت المقدس، فلسطين، ط1، 2001.

[5] المتوكل طه: فدوى طوقان – الرسائل والمحذوف-، وزارة الثَّقافة الفلسطينية، رام الله، ط1، 2010.

خامسًا: استعراض بعض الأعمال التي حازت على اهتمام النُّقاد والباحثين، فأكثروا من دراستها وتمحيصها وأول هذه الأعمال:

قصص الأبواب المنسية:

الكتاب عبارة عن مجموعة قصصيَّة صور فيها الأديب حياة الأبطال وراء القضبان، وهي قصص واقعيَّة صادقة تعايش معها الشَّاعر وعاش فيها بسبب اعتقاله مرَّات كثيرة، خضع في بعضها للاعتقال الإداري الذي ينزع من السّجين أبسط حقوقه الإنسانيَّة، فجاءت القصص وليدة تجربة حيَّة عاشها بكل تفاصيلها. فكان الألم والمعاناة منطلقًا للإبداع، وشكَّلت قسوة السَّجَّان وممارساته التَّعسُّفيَّة ضدَّ السَّجين الفلسطيني طاقات لا حدود لها من الإبداع، ويقع الكتاب الذي ازدان بعشرات اللُّوحات التَّشكيليَّة للفنَّانة "ريما مزين" في 221 صفحة من الحجم المتوسط. وقد قدَّم له الشَّاعر "عيسى قراقع". وتأتي نصوص الأبواب المنسيَّة التي يبلغ عددها ثلاثة وستين نصًا لتتحدَّث عن نماذج إنسانيَّة حرمت من ممارسة إنسانيَّتها، تعاني وتحلم وتمارس الحياة ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. لجأ الشَّاعر في هذه القصص إلى القص الشَّاعري، ولكن بعض النصوص لم تتوفر فيها الشُّروط الفنيَّة للقصص، فجاءت أقرب إلى لوحة فنيَّة تجمَّلت باللُّغة الشَّاعريَّة؛ لتكون خاطرة أو مقالة تحمل قصة أو حكاية أسير أو أسيرة محمَّلة بأطياف إنسانيَّة. وقد جاء هذا السَّرد بعيدًا عن المباشرة والشِّعارات الرنَّانة ليتغلغل بنعومة في عقليَّة المتلقَّي الذي لا يعود أمامه سوى التعاطف مع هؤلاء الضَّحايا.، والمؤلف الذي يمتلك ثروة لغويَّة لافته استغلَّها جيّدًا للتعبير عما يجول في خاطره "فجاءت شخصيَّات أبطاله منسجمة مع الواقع ليست شخصيات أسطوريَّة أو خرافيَّة بل هم بشرٌ يعيشون بيننا"[1]

ومن الصُّور التي صورها الشَّاعر بدقَّة وواقعيَّة، والتي تعكس جبروت الأسير وقوَّة إرادته

[1] ندوة اليوم السَّابع الدورة الأسبوعية في المسرح الوطني الفلسطيني في القدس، خصصت الجلسة لمناقشة كتاب – الأبواب المنسية-، 2011/3/31، من فعالية جميل السحلوت.

قصة "تصميم" القصَّة الثَّانية والخمسين من قصص "الأبواب المنسيَّة"، قصة ذلك السَّجين الذي كان يصنع من أنابيب معاجين الحلاقة، ومن عبوات البلاستيك والكرتون، ومن النَّشأ والسُّكر والمعجون، ومن حبَّات الزَّيتون أو التَّمر، مجسمات تستفز السَّجان" وصادف أن حان يوم الإفراج عن معتقل، كان يحمل معه مجسمًا كبيرًا لمسجد قبة الصَّخرة، متقنًا زاهيًا بألوانه ودِّقة في صنعه، فرآه مدير السِّجن فأخذه عنوةً وألقاه أرضًا وراح ببساطة يفخته ويكسره"[1] ومن القصص التي تدلُّ على محاولة قتل الأمل في نفوس السُّجناء حتى ولو كان ضئيلاً، قصة الشُّمّامة التي دعكها الجندي برجليه حين أحسَّ أنها تشكّل أملاً يقول المتوكل في قصَّته: "ابنتنا الشُّمَّامة " "انتبه السَّجّان إلى ما كنَّا نفعله لتلك الشَّتلة اليافعة التي بزغت وكبرت، وها هي تمرح وتكبر وربما تطرح ثمرًا بعد أسابيع ونقطف منها غير شُمَّامة عسلية المذاق، تقدم السَّجان وأمرنا أن نبتعد عنها، وراح يحملق بها، وفجأة رفع بسطاره، وراح يمعسها ويفركها كأنَّها أفعى تكاد تلدغه"[2] وعن الإرادة الحديدية التي تُزرع في نفس السَّجين مهما صغر سنه يأتي الشَّاعر بقصَّة طفل صغير دخل السَّجن ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة عندما اعتقلوه، كان ينتحب ويبكي وينادي أمَّه "تركته في السّجن عندما انتهت مدَّة حكمي، وعلمت أنَّه تقدم لامتحان الثَّانويَّة العامة في السّجن مع بعض زملائه ونجح، والتحق بالجامعة المفتوحة، وبعد ست سنوات أصبح للفتى لحية وشهادة جامعيَّة، وكان أن تمت صفقة تبادل الأسرى، فخرج من السّجن والتحق ببرنامج الماجستير "[3].

بهذه اللُّغة المكثفة اختزل المتوكل قصَّصًا طويلة بكلمات قليلة معبرة عن حجم المأساة التي يعيشُها السَّجين داخل القضبان، وقد أعجب كثير من النُّقاد بهذا العمل فأتحفوه دراسة وتمحيصًا ومن الدّراسات التي تناولت هذا الكتاب:

---

[1] المتوكل طه: الأبواب المنسية، ص 163.

[2] م.س، ص27.

[3] م.س، ص81.

المستويات الفنيَّة في الأبواب المنسيَّة / إبراهيم جوهر.

المتوكل طه يرسل شيفرة واضحة الرُّموز في كتابه - قصص الأبواب المنسيَّة -/ الرفاعي.

المتوكل طه يقتحم الأبواب المنسيَّة / سمير الجندي.

المتوكل طه يشرع الأبواب المنسيَّة / نبيل الجولاني.

قراءة في جديد المتوكل طه - الأبواب المنسيّة " ثنائيّة الوطن والسَّجان - / محمد الخطيب الكسواني.

حول الأبواب المنسيَّة / جميل بنَّورة.

المتوكل طه يطرق الأبواب المنسيَّة / جميل السلحوت.

ومن الدَّواوين التي حازت على الدّراسة والبحث ديوان " حليب أسود" الذي اقتحم فيه قلاع التَّاريخ وحصونه المنيعة ليسترجع حفنه من قصصه الرَّائدة ويسقطه على الحاضر بصورة غير مباشرة، وفي هذا الدّيوان الذي يقع في أربع وتسعين صفحة من الحجم المتوسّط، والذي صدرت الطَّبعة الأولى منه عام 2000، والذي يحكي قصَّة العباسة أخت هارون الرشيد، والعلاقة الوطيدة بين الَّرشيد والبرامكة ثمَّ تحوُّله عنهم ونكبتهم بقتل جعفر والفضل ابني يحيى بن خالد البرمكي، وسجنه له وزوجته التي أرضعت الرَّشيد مع ابنها الفضل ... وعندما سأله النُّقاد والأصدقاء لماذا حليب أسود ؟؟ رفض الإجابة وقال: لندع الإجابة في بطن الشَّاعر.[1]

وقد كان المتوكل جريئًا في قصائد هذا الديوان إلى درجة الموت، صريحًا إلى درجة النَّقد السَّاخر المؤلم، تكاد كلماته تصرخ قائلة: إنَّ العلاقة الوطيدة التي جمعت هارون الرَّشيد بالبرامكة ثمَّ انعطافه عليهم وارتداده عليهم وإبادتهم، لهو خطاب سياسيٌّ مضمونه أنّ المقربين والمخلصين ستنحدر العلاقات بهم إلى مصير مجهول، ويقدّم الشَّاعر ديوانه على

[1] مقابلتي مع الشاعر، 2013/3/19، رام الله، وزارة الإعلام.

سبيل الإهداء على هذا النحو "أقدم هذا الدّيوان إلى الأمير العربي هارون الرَّشيد الذي ربح كلَّ شيء وخسر كلّ شيء" المتوكل طه"[1].

وتستمد بعض القصائد دلالات دينيَّة وتاريخيَّة وتراثيَّة زادتها قوة وإقناعاً، فهو يربط الماضي بالحاضر بخيط رفيع من الواقعيَّة حيث يقول:

"قد أمدوا الممالك بالحاكمين الموالي، هم الحاكمون/ لهم دالت الأرض والغيم والسَّبع في الغاب، إن قيل/ شعرٌ فهم مدحه، وإذا قيل نثر فهم صدحه، وإذا/ وإذا قيل صخرٌ فهم صرحه، وإذا هب جمرٌ فهم قدحه/ وإذا حفَّ نصرٌ فهم مجده، ويضيئون بالزَّيت كلَّ الشِّوارع لمَّا يجيئون/ والليَّل إن غضبوا لا يُضاء، كيف يخطو إذن نحو برّ جديد،/ ويحكم هذا الخليفة بالعدل إنَّ المدى عواء ! " [2]

وتتجسَّد العباسة أخت الرشيد بعد اثني عشر قرنًا أميرة من سلالة عباسيَّة لها كل ما للعبَّاسيَّة من طموح الأنثى ..."فالرَّشيد بعد أن عقد للعباسة على جعفر اشترط ألا يدخل بها ... ولكن من يستطيع كبح حصان الشَّهوات ... ويقول الرُّواة إنَّ العبَّاسة حملت من جعفر وأنَّ الرَّشيد رحض عاره بقتل أخته التي كان يحبُّها " أمَّا المرأة المعاصرة التي تجسَّدت روح العبَّاسة فتصرخ بصوتِ عالٍ " أنا المرأة أكره هذا الثَّلج الهائل حولي، والعدن في زهرة كأسي، وعيون الحرَّاس اليقظات، أنا امرأة تشتهي النَّزوة واللَّفَّات، أحبُّ السّرَّ يجري في نومي، والدَّمع يغطيني ليلاً، والحسرة تجعلني أحلم لأرى عرقي مثل النَّبع ... أنا امرأة أكره هذا الملك وأكره تحنيط الملكات"[3]

[1] حليب أسود، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، ط1، 1999، ص1.

[2] م.س، ص21.

[3] عبد عوض الرَّوضان: الشّعر القصصي التاريخ- قراءة متأنية في ديوان حليب أسود للمتوكل طه-.

ويكاد البناء الفني للقصائد، يجذب تعاطفنا نحو الشَّاعر، فصورة الرّجال المقتولين تثبت لنا أنّ الموت رخيص ورخيص أمام جبروت الحاكم، فتراه يصّور حجم الكارثة التي وقعت على زوجات هؤلاء الرّجال السبعة بقوله:

"وانشق المشهد عن جثث ملقاة في الشَّارع/ الصُّورة تتدحرج/ والزَّوجة ما عادت للنَّوم/ من يحمل هذي الجثث السبَّع إلى الزَّوجات ؟! من يقدر أن ينظر في عيني زوجته الواسعتين، ويقول لها قد مات؟! ويبعد عن عيني طفلته سرب جنازته، ويقول لها/ في هذا النَّعش أبوك المشروخ"[1]

وتتوالى اللَّوحات في هذا الدّيوان وفي كلّ لوحة عبرة وصورة. وقد تناولت هذا العمل دراسَّات كثيرة بالتحليل والنَّقد:

- المتوكل طه في حليب أسود - ماء الصَّوت الشّعري في جسد التَّاريخ - / عبد الله عيسى.
- ديوان حليب أسود عن مأساة البرامكة - الإدانة الكاملة - / أحمد رفيق عوض.
- ديوان حليب أسود - صياغة المتناسق- / مغير البرغوثي.
- الموروث من التَّوظيف إلى التمثيل - دراسة في ديوان حليب أسود- / د.جاسم عاصي.
- بين الإحاطة والتَّأويل - دراسة في ديوان المتوكل طه حليب أسود- / عبَّاس دويكات.
- استنهاض الحدث التَّاريخي لإسقاطه على العصر/ هادي الربيعي.
- الشّعر القصص التَّاريخ- قراءة متأنيَّة في ديوان حليب أسود- /عبد عوض الرُّوضان.
- قراءة في ديوان حليب أسود للشَّعر المتوكل طه / محمد مشايخ.
- شبكة المواجهات وأساليب الحفر القرآني - قراءة في ديوان حليب أسود - / د. محمد صابر عبيد.
- هكذا يرشف الحليب - قراءة في ديوان المتوكل طه حليب أسود - / خليل حسونة.

[1] المتوكل طه: حليب أسود، ص61.

ولسنا بصدد دراسة كافة أعمال المتوكل طه، ولكنَّنا أخذنا - الأبواب المنسيَّة - وحليب أسود - كنماذج حيَّة على الطاقات الإبداعية التي امتلكها المتوكل طه، وعلى مقدرته امتطاء خيول التَّاريخ والتَّحليق بها خارج الزَّمان والمكان.

ومن أعماله التي نالت إعجاب النُّقاد أيضًا"فضاء الأغنيات" و"محاولة الوصول إلى الحمراء" و"نقوش على جدارية محمود درويش"، ولا ننسى أنَّ الشَّاعر استحق الجائزة الأولى على قصيدته " القدس" التي قدَّمها في إطار مسابقة " البابطين" بمناسبة إعلان القدس عاصمة الثَّقافة العربيَّة عام 2009.

وتظل خريطة الوطن ترتسم بألوان لطيفة في حنايا شعره، وكلما أعدنا قراءة قصيدة من قصائده فإننا نكتشف الوطن مرَّةً أخرى من خلالها، ونشعر أنَّ المكان يعيش في دواخلنا؛ بمساحاته، بحواكيره، ببيوته العتيقة، بأشجار برتقاله وزيتونه، فهو العشق الأول، والخطوة الأولى فنراه يؤكد ذلك في قصيدته من ديوان فضاء الأغنيات قائلاً:

"وتعال يا عربي انظر

في المغاور والأزقة والحواكير المنيعة

والشَّوارع والمنازل

والطَّوابين الدَّفيئة والمصاطب"[1]

وأخيرًا أختم بقولي إنَّ هذه الدَّراسة المتواضعة لا تفي المتوكل وأعماله الموزعة على خمسة عشر ديوانًا شعريًا، وخمسة وعشرين كتابًا ودراسة، وثمان وسبعين مقالة ورسالة علميَّة كتبت فيه.

لقد أثرى بأشعاره الملتزمة التي تعبر عن نبض الشَّارع الفلسطيني المكتبة العربيَّة، وأضاف للعلم والمعرفة الإنسانيَّة روافد كثيرة.

[1] المتوكل طه: فضاء الأغنيات، ص32.

المصادر والمراجع

1- الجوهر، زاهر. **شعر المعتقلات في فلسطين**. فلسطين: بيت الشعر الفلسطيني، د.ت.

2- الأسطة، عادل. **أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات**. رام الله: وزارة الثَّقافة الفلسطينيَّة، 1998.

3- ياغي، عبد الرحمن. **حياة الأدب الفلسطيني الحديث**. بيروت: منشورات المكتب التّجاري: د.ت.

4- حامد، عبد المجيد عبد العزيز. **أعشاب القيد والقصيدة: التجربة الشّعرية عند المتوكل**. رسالة ماجستير، إشراف: عادل أبو عمشة. نابلس: جامعة النَّجاح الوطنيَّة، 2002.

5- طه، المتوكل. **الأبواب المنسيَّة**. قصص قصيرة. فلسطين، رام الله: وزارة شؤون الأسرى والمحررين، 2011.

6- طه، المتوكل. **أو كما قال**. عمَّان: دار الفارس، 1999.

7- طه، المتوكل. **حليب أسود**. القدس: اتحاد الكتَّاب الفلسطينيَّين، 1999.

8- طه، المتوكل. **دراسة في قصيدة الثلاثاء الحمراء لإبراهيم طوقان**. فلسطين: بيت المقدس، 2001.

9- طه، المتوكل. **رغوة السُّؤال**. القدس: دار الكاتب، 1992.

10- طه، المتوكل. **رمل الأفعى - سيرة كتسعوت معتقل أنصار3** -. القدس: بيت المقدس للنَّشر والتوزيع، 2001.

11- طه، المتوكل. **ريح النَّار المقبلة**. القدس: اتحاد الكُتَّاب الفلسطينيَّين، 1993.

12- طه، المتوكل. **زمن الصُّعود**. القدس: اتحاد الكُتَّاب الفلسطينيّين، 1989.

13- طه، المتوكل. **السَّاخر والجسد - إبراهيم طوقان دراسة في شعره** -. ط2. عمَّان: دار اللُّوتُس، 1992.

14- طه، المتوكل. **فدوى طوقان- الرَّسائل والمحذوف**- رام الله: وزارة الثَّقافة الفلسطينيَّة، 2010.

15- طه، المتوكل. **فضاء الأغنيات**. القدس: دار الكاتب، 1990.

16- طه، المتوكل. **الكُنوز- ما لم يَعرف عن إبراهيم طوقان**-. عمَّان: دار الشروق، 1999.

17- طه، المتوكل. **مواسم الموت والحياة**. القدس: دار العودة، 1987.

18- طه، المتوكل. **نصوص إيلياء ويبوس**. رام الله: دار الرَّاية للإعلام والنَّشر، 2009.

19- طه، المتوكل. **هذا ما لزم - رسائل إبراهيم طوقان إلى فدوى** -. ط2. رام الله: الزَّاهرة للنّشر والتوزيع، 2000.

20- أبو نضال، نزيه. **الشّعر الفلسطيني المقاتل**. القدس: اتحاد الكُتَّاب الفلسطينيِّين، 1974.

21- الفاهوم، وليد. **فلسطينيَّات في سجن النّساء الإسرائيلي**. عمان: دار الجليل، 1985.

22- خوري، إلياس. **الذَّاكرة المفقودة**. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربيَّة، 1982.

مصادر أخرى

1- الشّعر والقصص والتَّاريخ – قراءة متأنية في ديوان حليب أسود للمتوكل طه – عبد عوض الرُّوضان، على صفحة المتوكل طه على الإنترنت.

2- مقابلتي مع الشَّاعر المتوكل طه، 19/3/ 2012 م، رام الله: وزارة الإعلام.

3- موقع الشَّاعر على الإنترنت www.a-taha.com.

4- ندوة اليوم السّابع الدَّوريَّة الأسبوعيَّة في المسرح الوطني الفلسطيني في القدس، خصصّت الجلسة لمناقشة كتاب الأبواب المنسيَّة، 2011/3/31، من فعالية جميل السّلحوت.